القويُّ يأكل الضعيف

أمثلة غريبة من عالم الحيوان

اظهر ما في هذا الكون من الآيات بين الاحياء آية سُطّرت في ادم الارض ورحاب الفضاء — وهي ان القويَّ يأكل الضعيف . وعلى هذه الآية بنى علماء البيولوجيا والطبيعة اقوالهم وشروحهم في تفسير قواعد الحياة ومنها اشتقوا قولهم «الانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء وبقاء الاصلح» اي ان القويَّ يبيد الضعيف ويرث الارض بعدهُ إما بالاعتداء عليهِ مباشرة كما تفعل الضواري من الحيوان وكما كان الانسان يفعل في عهد همجيتهِ وإما بالاعتداء عليهِ بواسطة وتلك الواسطة هي الطبيعة بما فيها من حرّ وبرد وجوع وعري ومرض. فان هذه العوامل كلها تساعد القوي على الضعيف او تقرض الضعيف من امام القوي فالصحيح والغني اصلح للبقاء وابعد عن الفناء من السقيم والفقير

وتاريخ الانسان من بدء ظهورهِ على هذه الارض الى عهدنا الحاضر شاهد على ان هذا المبدأ لم يتغير بتغير احوال الناس في معايشهم وارتقائهم من حال البداوة والهمجية الى حال الحضارة والمدنية . فقد كانت طوائف البشر فيما مضى كطوائف الحيوان في كل زمان ومكان — يبتلع القوي الضعيف ويهضم حقوقهُ

والحيوان يعتدي بعضهُ على بعض ويفترس بعضهُ بعضاً بطرق شتى واساليب مختلفة. فمن السمك نوع يسمى الرامي تشبيهاً لهُ برامي السهم عن القوس او البصّاق وانما سمي كذلك لانهُ اذا رأى حشرة على نبتة نبتت قرب الشاطىء دنا منها الى اقرب ما يمكنهُ ثم ملأ فمهُ ماء وقذف بهِ على الحشرة فتسقط في الماء فيلتهمها . وهو يصيب غرضهُ وقلما يخطئهُ ويكثر وجودهُ في انهار جزائر الهند الشرقية واهل جاوى وما جاورها يصيدونهُ من الانهار ويحفظونهُ في بركهم للعب والتسلية وذلك انهم يلتقطون لهُ الذباب ويدنونهُ منهُ فيقذف عليهِ الماء من فيهِ حتى يقع في البركة فيلتقمهُ

ومن الحيوان ما يصطاد فريستهُ بكونهِ لها حيث يرى ولا يرى لفطنهِ بالبلقة ان منها ما هو شديد الحذر والتوقي على نفسهِ كالسمك فانهُ يتربص لفريستهِ في الماء او بين الاعشاب اياماً لا يبدي حراكاً كانهُ ميت حتى تمرّ من امامهِ فينقضُّ عليها كالبرق الخاطف . ومن الافاعي نوع يتعلق بالاشجار من ذنبهِ متدلياً ويبقى كذلك

لا يتحرك حتى يضمر التمييز بينهُ وبين الغصون التي حولهُ . فاذا مرَّت فريستهُ تحت الشجرة القى بنفسهِ عليها . وهكذا يفعل بعض انواع العلق في حراج افريقية فانهُ يعلق بغصون الاشجار حتى اذا مرَّ انسان او دابة تحتهُ سقط عليها ليمتص دمها

ومنها النسر ملك الكواسر . وصف بعضهم صيد بعض انواعهِ لفريستهِ نزراً مثل ما وصف المتنبي الاسد ملك الوحوش شعراً من قصيدتهِ في بدر بن عمار فقال : يحلق ملك الكواسر في الجوّ ثم ينقض فجأةً على شجرة بجانب نهر يرصد فريستهُ منها بعين تقدح شرراً وتتبين الاشباح بجلاء ولو كانت على حدود الافق واذن تكاد تسمع دبيب النمل في قراهُ . وتراهُ آونة بعد اخرى ينظر الى اسفل خشية ان لا يطرق سمعهُ وئيد الظبية وخشفها . وتجثم اثناءهُ على شجرة في الضفة المقابلة وتصيح فيهِ حيناً بعد حين كأنها توصيهِ بالصبر وتحثهُ على السهر فينشر جناحيهِ ثم يطويهما وينحني الى الامام ويردُّ عليها بصراخ كأنهُ قهقهة الضاحك او عربدة الشارب الثمل ويعود فيستوي في مجثمهِ كالملك على عرشهِ . فتمرُّ من تحتهِ اسراب البط تباعاً سراعاً ترد الماء فلا يرمقها بنظرة كبراً وترفعاً

وفيما هو على تلك الحال يطرق اذنهُ واذن اثناءهُ صوت اوزة عن بعد تصيح الا ان صيحة شديدة وتأخذهُ هزة فينتفض كأن قد بللهُ القطر ويتحفز للانقضاض على فريستهِ حتى اذا مرَّت امامهُ جمع نفسهُ في زورهِ وانبعث من مكمنهِ انبعاث السهم عن قوسهِ او الشهاب الثاقب من فلكهِ وهو يصعق صعقات قوية تصيب اذن الاوزة فتقع عليها وقع الصاعقة وتحاول الفرار منهُ ولكن ابن المفرَّ وسلطان الطير هو الطالب . فتحاول القاء نفسها في الماء فينعها من ذلك بان ينازلها من اسفل فيضطرها الى البقاء طائرة حتى تقع غنيمة بين براثنهِ

ومن السمك نوع يصيد فرائسهُ بالحيلة فان لهُ شبه عرف معلقاً بانفهِ فيدفن نفسهُ في الوحل ويبقي العرف فوق الماء فاذا رأت صغار السمك العرف اجتمعت حولهُ ظناً أن هناك غنيمة باردة فيفتح فاهُ بغتة فتتحدر الى جوفهِ وهو لم يحرك لصيدها ساكناً

ومن الحشرات ما يحفر في الارض حفرة مستديرة جوانبها من التراب والرمل الناعم فاذا مرَّت حشرة اخرى بها هوت الى اسفل فاصطيدت

والعناكب تقنص صيدها بشباك تحوكها فمنها ما يقف لفريستهِ بالمرصاد وسط شبكتهِ ومنها ما يختبئ قرب الشبكة في ثقب من الحائط فاذا وقعت الفريسة في الشبكة المنصوبة

جعلت العنكبوتة تغزل الخيوط وتلفها حولها لتحميها من الهرب . ومن هذه العناكب عنكبوتة في مدغشكر حيّرت علماء الحيوان مدة طويلة فان في وسط الشبكة التي تحوكها خيطاً غليظاً لم يهتدوا الى فائدته مع طول المراقبة ولم يروها تستخدمهُ لغرض من الاغراض . والغريب انهُ اذا ازيل اسرعت فغزلت خيطاً آخر غيرهُ . واتفق انهُ بينما كان احد العلماء يراقب عنكبوتة من هذه العناكب رأى جندباً كبيراً قد وثب الى وسط الشبكة وما كاد يتصل حتى وثبت العنكبوتة خلفهُ باسرع من لمح البصر وشدّت وثاقهُ بالخيط الكبير لان الخيوط الصغيرة لا تكفي لذلك

ومن الحيوانات حيوان يسمّى آكل النمل وطريقة صيدهِ لها هي انهُ يبسط لسانهُ الطويل على الارض وكل نملة تمرُّ عليهِ تلصق بهِ لوجود مادة لزجة عليهِ فاذا اجتمع منها لقمة سائغة ازدردها هنيئاً مريئاً . وكثيراً ما يفرز لسانهُ في قرية للنمل ثم يخرجهُ منها محملاً صيداً . ومنها ما يصطاد جماعات كالكلاب البرية والذئاب والثعالب . روى بعضهم ان الكلاب البرية تجري خلف فريستها وهي تسابق الرياح وتستحثُّ بعضها بعضاً بالنباح حتى تخور قوة الفريسة رعباً وتعباً . واذا طاردت حيواناً لم ينقذهُ منها جريهُ ولا خفة حركتهِ ولا قوة عضلهِ ولا شدة بطشهِ. فالغزال والنمر والذئب والاسد عندها شرعٌ . تتبع الفهد الهندي عن كثب وتهجم عليهِ فيثخن فيها جرحاً وقتلاً فلا يثنيها ذلك عنهُ بل لا تزال بهِ حتى تنال مأربها منهُ

ومثل الكلاب البرية الذئاب فان شراستها مشهورة ولاسيما اذا دهمها الجوع. ففي الحرب تسير في اثر الجيوش فتستفرد المتخلفين من الجنود وتلتهم القتلى . او تهاجم المسافرين زرافات او تجتمع زوجين زوجين وتأخذ صيدها بالحيلة . فاذا عثر الزوجان منها بقطيع من الماشية حسبا للكلب الذي يحرس القطيع كلَّ حساب علماً منها بشدة سهرهِ وقوة دفاعهِ ودقة شمّهِ فيحاولان خداعهُ بالطريقة الآتية وهي انهما يدنوان من القطيع مسترقين الخطى ثم يظهر احدهما امام الكلب ويختبئ الآخر منهُ فيهجم الكلب على الذئب الذي يراهُ فيهرب هذا امامهُ والكلب في اثرهِ فينتهز الذئب الآخر الفرصة ويهجم على القطيع فيخطف منهُ شاة ويفرُّ الى حيث يقتسمها هو وشريكهُ

وزبدة القول ان هذا الكون اشبه بميدان يصول فيهِ الاحياء ويجولون ويتجالدون ويتطاعنون ويتسابقون تسابق خيل الطراد فلا يسبق الاَّ الجواد ولا يسلم الاَّ البطل او شديد الحيلة كثير الدهاء